

تعالى (ألا حين يستشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) الآية وقال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وقوله (ويوم يرجعون إليه) أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أى يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى (ينبا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال (ووضع الكتب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحسداً) ولهذا قال ههنا (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام . آخر تفسير سورة التور والله الحمد والمنة .

(تفسير سورة الفرقان مكية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا تَقْدِيرًا ﴾

يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قبيها لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية وقال ههنا (تبارك) وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة (الذي نزل الفرقان) نزل فعل من التكرار والتكرار كقوله (والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجماً مفزلاً آيات بعد آيات وأحكاماً بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلتناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً) وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقوله (ليكون للعالمين نذيراً) أى إنما خصه بهذا الكتاب الفصل العظيم البين المحكم الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) الذي جعله فرقاناً عظيماً ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخصراء ويستقل على الغبراء كما قال عليه السلام « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » قد كرمهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) الآية أى الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهو الذي يحيى ويميت ، وهكذا قال ههنا (الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه (خلق كل شيء بقدره تقديراً) أى كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدييره وتسخيره وتقديره .

﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ

مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء الملك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا كيف يملكون لعابديهم؟ (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أى ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلعج البصر) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعا لدينا محضرون) فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغى العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى لا ولد له ولا والد ولا عدل ولا بديل ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُكْتَبَتْهَا فِيهِ مُتَمَلًى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجاهلة من الكفار في قولهم عن القرآن (إن هذا إلا إفك) أى كذب (افتراه) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) أى واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعالى (فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد افترواهم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه (وقالوا أساطير الأولين اكتبها) يعنون كتب الأوائل أى استنسخها (ففى تملى عليه) أى تقرأ عليه (بكرة وأصيلا) أى فى أول النهار وآخره وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيئا من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحراروا فيما يقذفونه به فتارة من إفكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب، وقال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا (الذى يعلم السر) أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى (إنه كان غفورا رحيمًا) دعاء لهم إلى التوبة والانابة وإخبارهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والاقبال عمهم فيه إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *

أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * أَنْظَرُ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ
جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُضُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّبِينَ دَعَوْا
هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وإنما تعلقوا بقولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) يعنون كأنما كله ويحتاج إليه كما يحتاج إليه (ويمشي في الأسواق) أي يتردد فيها وإليه طلب الكسب والتجارة (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون (فإلأ ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا (أويلقى إليه كنز) أي علم كنز ينفق منه (أو تكون له جنة يأكل منها) أي تسير معه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) قال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا) أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم واقتراءهم في ذلك ولهذا قال (فضلوا) عن طريق الهدى (فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء آتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) الآية ، قال مجاهد يعني في الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً كبيراً كان أو صغيراً قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خزيمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك ، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال « اجمعوها لي في الآخرة » فأنزل الله عز وجل في ذلك (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) الآية وقوله (بل كذبوا بالساعة) أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال (وأعتدنا) أي أرضدنا (لمن كذب بالساعة سعيراً) أي عذاباً ألياً حاراً لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير (السعير) واد من قبح جهنم وقوله (إذا رأتهم) أي جهنم (من مكان بعيد) يعني في مقام المحشر . قال السدي من مسيرة مائة عام (سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) أي حقاً عليهم كما قال تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخنف الواسطي أنه سمع محمد بن الحسن الواسطي عن أصعب بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يقل على مالم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو اتقى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار - وفي رواية - فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعت الله يقول (إذا رأتهم من مكان بعيد) الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خدش عن محمد بن زيد الواسطي به وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل قال خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فرأوا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى

حديده في النار ، وينظر الريح بن خيم اليها فتايل الريح ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية (إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) فصعق يعنى الريح وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يبق رضى الله عنه ، وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشبه إليه شهقة البغلة إلى الشعر ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بسنده مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد بسنده إلى ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتزوى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن مالك ؟ قالت إنه يستجير مني فيقول أرسلوا عبيد وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول أن تسعني رحمتك ، فيقول أرسلوا عبيد وإن الرجل ليجر إلى النار فتشبه إليه النار شهقة البغلة إلى الشعر وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وهذا إسناد صحيح : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) قال إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليخثر على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسي . وقوله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج في الرمح أى من ضيقه . وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قول الله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال « والذى نفسى بيده إنهم ليستكروهون في النار كما يستكروه الوتد في الحائط » وقوله (مقرنين) قال أبو صالح يعنى مكتفين (دعوا هنالك ثبورا) أى بالويل والحسرة والحية (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا) الآية . روى الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى ياثبورا وينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول ياثبورا ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا » لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا) الآية أى لاتدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور : الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون (وإنى لأظنك يافرعون مشبورا) أى هالكا قال عبد الله بن الزبير

إذ أجازى الشيطان في سنن الع ... ومن مال ميسله مشبور

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾

يقول تعالى : يا محمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ويلقون في أما كينها الضيق مقرنين لا يستطيعون حرا ولا استنصارا ولا فكا كما مماهم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدنا الله المتقين من عباده التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم اليها (لهم فيها ما يشاءون) من نلذ من ما كل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا ييغون عنها حولا وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ولهذا قال (كان على ربك وعدا مسئولا) أى لا بد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء

العربية أن معنى قوله (وعدا مسئولا) أى وعدا واجبا . وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (كان على ربك وعدا مسئولا) يقول فسألوا الذى وعدهم وتجزوه ، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله (كان على ربك وعدا مسئولا) إن الملائكة تسأل لهم ذلك (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) . وقال أبو حازم إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا فأجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله (وعدا مسئولا) وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والخبور ثم قال (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لا كلون منها فالثون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لىلى الجحيم إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُعْتَبَرُونَ أَمْ لَهُمْ خِلْيَابٌ ظَنَنُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْبَدُونَ ﴾

سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَرَّمُوا بِحُكْمِهِ قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿

يقول تعالى مخبرا عما يقع يوم القيامة من تفريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) قال مجاهد هو عيسى والعزير والملائكة (فيقول أأنتم أضلتم عبادى هؤلاء) الآية أى يقول تبارك وتعالى للمعبودين أأنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرت به) الآية ولهذا قال تعالى مخبرا عما يجيب به للمعبودين يوم القيامة (قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) قرأ الأكترون بفتح النون من قوله (نتخذ من دونك من أولياء) أى ليس للخلاق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك لأنهم ولا هم فنحن مادعونهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك) الآية وقرأ آخرون (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ^(١) من دونك من أولياء) أى ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك وهى قريبة المعنى من الأولى (ولكن متعتهم وآباءهم) أى طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أى نسوا ما أنزلته اليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك (وكانوا قوما بورا) قال ابن عباس أى هلكى ، وقال الحسن البصرى ومالك عن الزهري أى لاخير فيهم . وقال ابن الزبيرى حين أسلم :

يارسول اللئيك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجارى الشيطان فى سنن الله ومن ميله مشبور

قال الله تعالى (فقد كذبوكم بما تقولون) أى فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله (فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى لا يقدرتون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم (ومن يظلم منكم) أى يشرك بالله (نذقه عذابا كبيرا)

(١) أى بضم النون وفتح الحاء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحالمهم ومنصبهم فان الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والحوارق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) وقوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) الآية وقوله تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لتعلم من يطع من يعصى ولهذا قال (أتصبرون وكان ربك بصيرا) أى بمن يستحق أن يوحي إليه كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك ، وقال محمد بن إسحق في قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) قال: يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لعلت ولكنى قد أردت أن أتلى العباد بهم وأبتليكم بهم وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى إني مبتليكم ومبتلى بك » وفى المسند عن رسول الله ﷺ « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » وفى الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختر أن يكون عبدا رسولا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى بالرسالة كما نزل على الأنبياء كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا (لولا أنزل علينا الملائكة) فزاهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان ولهذا قالوا (أو نرى ربنا) ولهذا قال الله تعالى (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) وقد قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآية وقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) أى هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجى أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، أخرجى إلى سموم ونجم وظل من محموم فتأبى الخروج وتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ولهذا قال في هذه الآية الكريمة (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فانهم يبشرون بالخيرات ، وحصول السرور . قال الله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : إن

الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعميرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال آخرون : بل المراد بقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى) يعني يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم فإن الملائكة في هذين اليومين يوم المات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبّر الكافرين بالخيبة والحسرة فلا بشرى يومئذ للمجرمين (ويقولون حجرا محجورا) أى وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضى على فلان إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه وإنما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق والغرض أن الضمير في قوله (ويقولون) عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا موسى بن قيس عن عطاء العوفى عن أبى سعيد الخدرى في الآية (ويقولون حجراً محجوراً) قال حراماً محرماً أن يبشر بما يبشر به المتقون ، وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة) أى يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجراً محجوراً) وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبى نعيم عن مجاهد أنه قال في قوله (حجراً محجوراً) أى عوداً معاذاً فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبى حاتم عن ابن أبى نعيم عن مجاهد أنه قال (حجراً محجوراً) عوداً معاذاً الملائكة تقول ذلك فإله أعلم . وقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل الآيات هذابيوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوا من الخير والشر فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى إما الإخلاص فيها وإما التابعية للشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) قال مجاهد والثورى (وقدمنا) أى عمدنا وكذا قال السدى وبعضهم يقول أتينا عليه . وقوله تعالى (فجعلناه هباء منثوراً) قال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن الحارث عن على بن رضى الله عنه في قوله (هباء منثوراً) قال شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وكذا روى من غير هذا الوجه عن على ، وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والسدى والضحاك وغيرهم ، وكذا قال الحسن البصرى هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (هباء منثوراً) قال هو الماء المهرق ، وقال أبو الأحوص عن أبى إسحق عن الحارث عن على (هباء منثوراً) قال الهباء وهج الدواب ، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك وقاله عبد الرحمن بن زبدي بن أسلم وقال قتادة في قوله (هباء منثوراً) قال أمارأيت بيس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق ، وقال عبد الله بن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبى سريخ الطائى عن عبيد بن يعلى قال وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجوز ولا يظلم أحداً إذا إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء النافه الحقيير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى (مثل الذين كفروا برهبهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى - إلى قوله تعالى - لا يقدر على شيء مما كسبوا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وتقدم الكلام على تفسير ذلك والله الحمد والمنة . وقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) أى يوم القيامة (لا يستوى

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والنفقات الآمات فيهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى بشئ المنزل منظرا وبشئ المقييل مقاما ولهذا قال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أى بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال الضحاك عن ابن عباس: إنما هي ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال الله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال عكرمة إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقبولة فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قبولتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم وذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال سفيان عن ميسرة عن النهال عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقرأ (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم): وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال قالوا في الغرف من الجنة وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) * وينقلب إلى أهله مسرورا) وقال قتادة (خير مستقرا وأحسن مقيلا) مأوى ومنزلا وقال قتادة وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا في الدنيا إلى الحمرة واليباض فيحاسب فإذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به إلى النار والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول يارب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول الله: صدق عبدى فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة ثم يتركان ماشاء الله، ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحمرة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شرمقيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت؟ فيقول رب خير مقييل فيقال له عد. رواها ابن أبي حاتم كلها، وقال ابن جرير: حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن سعيدا الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقبلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

﴿ وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلِينَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَوْمَئِذٍ لِيَنبِي لِيَنبِي لَمْ أَخَذْ فَلَنَا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغم وهو ظلل النور العظيم الذى يهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخالق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد وهذا كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس

رضى الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطيور وجميع الخلق
فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق
ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق وهم أكثر من
أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن
جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك
التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن
جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا
عز وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والإنس ، وجميع الخلق
لهم قرون كأ كعب التنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسييح والتهليل والتقديس لله عز وجل ما بين أخصم قدم أحدهم
إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حجزته (١) مسيرة خمسمائة عام
وما بين حجزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة
خمسمائة عام وجهنم محس ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني
الحجاج عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه
السماء إذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الأنس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض
فيقول أهل الأرض جاء ربنا ؟ فيقولون لمجيء وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف
إلى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال فستنزل
الملائكة الكروبيون ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه
مسيرة سبعين سنة. قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه وكل ملك منهم واضع رأسه بين يديه (٢) يقول سبحانه الملك
القدوس وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فمداره على علي بن زيد بن جدعان وفيه
ضعف في سياقاته غالباً وفيها نكارة شديدة ، وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم ، وقد قال
الله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك
فوقهم يومئذ ثمانية) قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون : سبحانه اللهم وبحمدك لك الحمد على حمدك
بعد علمك . وأربعة منهم يقولون : سبحانه اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر
ابن عبد الله إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم تنخست إليه أبصارهم ورجفت كلامهم في أجوافهم
وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم . قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا المعتز بن
سليمان عن عبد الجليل عن أبي حازم عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله عز وجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف
حجاب منها النور والظلمة فيضرب الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب وهذا موقف على عبد الله بن عمرو من كلامه
ولعله من الزاملتين والله أعلم

وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) الآية كما قال تعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) وفي الصحيح
أن الله تعالى يطوى السموات يمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟
أين الجبارون أين المتكبرون ؟ وقوله (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) أي شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء
فضل كما قال تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير) فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما
المؤمنون فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا حسين بن موسى حدثنا ابن لبيعة
حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قيل يارسول الله (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول
هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه

(١) في النسخة المكية أرثيته (٢) في نسخة يديه .

من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا » وقوله تعالى (ويوم يعرض الظالم على يديه) الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفاً وسواء كان سبب نزولها في عقبه بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم في النار) الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعرض على يديه قائلًا (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * ياويلنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً) يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك أمية ابن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرها (لقد أضلني عن الذكر) وهو القرآن (بعد إذ لجاني) أي بعد بلوغه إلى قال الله تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنَّا قَوْمِي أَخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتناله وأمره واجتناب زواجه من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ، من هجرانه فنسأل الله الكريم اللتان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آتاء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الأمم الماضية لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا (وكفى بربك هادياً ونصيراً) أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة وإنما قال (هادياً ونصيراً) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهمنا قال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) الآية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءُ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعتهم وكلامهم فيما لا يعنيه حيث قالوا (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزابور وغيرها من الكتب الإلهية فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله (وقرآناً فرقاه) الآية ولهذا قال (لنثبت به فؤادك وترتلناه ترتيلاً) قال قتادة: بيناه تبييناً . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيراً (ولا يأتونك بمثل) أي بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أي ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق

في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يأتونك بمثل) أي بما يلبسون به عيب القرآن والرسول (إلا جثناك بالحق) الآية أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلا ونهارا سفرا وحضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا المقام أطل وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففي الملائكة الأطل أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائي بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، قال الله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جثناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » وهكذا قال مجاهد والحسن وقادة وغير واحد من المفسرين

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا * قَلَّمْنَا أُذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسُلِ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أْتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا السَّوْءَ أَلَمُمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتْرُجُونَ نُشُورًا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من مشركي قومه ومن خالفه ومخذرم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم للماضية الكذابين لرسوله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أي نبيا موازرا ومؤيدا وناصرنا فكذبهما فرعون وجنوده (فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فأنهم كانوا يكذبون ، ولهذا قال تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم تقمه (لما آمن معه إلا قليلا) ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يبق منهم أحدا ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط (وجعلناهم للناس آية) أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) أي وأيقيناكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس) قد تقدم الكلام على قصتهما في غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الاعداء ، وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج عن ابن عباس هم أهل قرية من قري ثمود وقال ابن جريج : قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس ، وقال قتادة : فلج من قري اليمامة وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله (وأصحاب الرس) قال بئر بأذربيجان وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها ، وقال ابن إسحق عن محمد بن كعب

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرا ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلى إليه طعامه وشرا به ثم يردھا كما كانت ، قال فكان ذلك ماشاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرا كما كان يصنع ثم إنه ذهب إلى الحقيرة موضعها الذي كانت فيه فالتسه فلم يجده وكان قد بدا لقومه فيه بدءا فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، قال فكان بينهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له لاندرى حتى قبض الله النبي وهب الأسود من نومته بعد ذلك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحق عن محمد بن كعب مرسل وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجا والله أعلم : وقال ابن جرير لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرأس الذين ذكروا في القرآن لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم ، واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج فأنه أعلم . وقوله تعالى (وقرونا بين ذلك كثيرا) أي وأما أضعاف من ذكر أهلكتناهم كثيرة ولهذا قال (وكلا ضربنا له الأمثال) أي بينناهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة كما قال قتادة وأزحنا الأعدار عنهم (وكلا تبرنا تنبيراً) أي أهلكتنا إهلا كما كقوله تعالى (وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح) والقرن هو الأمة من الناس كقوله (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) وحده بعضهم مائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) يعني قرية قوم لوط وهي سدوم التي أهلكتها الله بالقلب والمطر من الحجارة التي من سجيل كما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) وقال (وإنكم لتمررون عليهم مصبحين * وبالليل أفلاتعقلون) وقال تعالى (وإنها لبسيل مقيم) وقال (وإنهما لبيمام مبين) ولهذا قال (أفلم يكونوا يرونها) أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم وأمر الله (بل كانوا لا يرجون نشورا) يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورا أي معادا يوم القيامة

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوعًا أَهْذًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً) الآية يعنونه بالعب والنقص ، وقال ههنا (وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا ؟) أي على سبيل التنقص والازدراء فقبجهم الله كما قال (ولقد استهزئء برسلك من قبلك) الآية . وقوله تعالى (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) يعنون أنه كاد يشبههم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) الآية . ثم قال تعالى لنبيه منها أن من

كتب الله عليه الشقاوة والضلال فانه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى مهما استحسن من شيء ورآه حسنا فى هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى (أفئن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء) الآية ولهذا قال ههنا (أفأنت تكون عليه وكيلا) قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فاذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول . ثم قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية أى هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة فان تلك تفعل ما خلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحججة عليهم وإرسال الرسل اليهم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟) قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (ولو شاء لجعله ساكنا) أى دائما لا يزول كما قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) الآيات . وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أى لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لا يعرف إلا بوضده ، وقال قتادة والسدي دليلا تتلوه وتتبعه حتى تآتى عليه كله . وقوله تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً) أى الظل وقيل الشمس (يسيراً) أى سهلا قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفيا وقال السدي قبضا خفيا حتى لا يبق فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس ما فوقه ، وقال أيوب بن موسى فى الآية (قبضا يسيرا) قليلا قليلا ، وقوله (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) أى يلبس الوجود وينشاه كما قال تعالى (والليل إذا يغشى) (والنوم سباتا) أى قاطعا للحركة لراحة الأبدان فان الأعضاء والجوارح تسكن من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معا (وجعل النهار نشورا) أى ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا سَيِّدٌ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أى بجىء السحاب بعدها والرياح أنواع فى صفات كثيرة من التسخير فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ومنها ما يسوقه ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشرا ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ومنها ما يلقي السحاب ليمطر ولهذا قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) أى آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراها . فهذا أصح ما يقال فى ذلك ، وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل أو إنه مبنى للمبالغة والتعمدى فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى بإسناده إلى حميد الطويل عن ثابت البناني قال دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير وطرق البصرة فذرة فصلى فقلت له فقال (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) قال طهره ماء السماء وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا أبوسلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن السيب فى هذه الآية قال : أنزله الله طهورا لا ينجسه شيء . وعن أبى سعيد قال : قيل يا رسول الله أتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر يلقى فيها اللبن ولحوم الكلاب ؟ فقال « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » رواه الشافعى وأحمد وصححه وأبو داود والترمذى وحسنه والنسائى . وروى ابن أبى حاتم بإسناده

حدثنا أبي حدثنا أبو الأشعث حدثنا معتمر سمعت أبي يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيذبه الرعد والبرق فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فأما النبات فما كان من السماء ، وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة ، وقال غيره : في البر وفي البحر در ، وقوله تعالى (لنحيي به بلدة ميتاً) أى أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هادمة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الحياء عاشت واكتست ربها أنواع الأزهار والألوان كما قال تعالى (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) الآية (ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناساً كثيراً) أى وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم كما قال تعالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) الآية وقال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) الآية : وقوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم لينذروا) أى أمطرنا هذه الأرض دون هذه وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقا والتي وراها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، قال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية (ولقد صرفناه بينهم لينذروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى لينذروا باحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو لينذر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه . وقال عمر مولى عقبة : كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب » قال : فقال له جبريل يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صكك مختمة : أسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) قال عكرمة يعنى الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذى قاله عكرمة كما صحح في الحديث الخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب »

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

يقول تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض وأمرناك أن تبليهم هذا القرآن (لأنذرهم به ومن بلغ) (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (لتندر أم القرى ومن حولها) (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وفي الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » وفيهما « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) يعنى بالقرآن قاله ابن عباس (جهادا كبيرا) كما قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية وقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) أى خلق الماءين الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب فرات الزلال : قاله ابن جرير واختاره ابن جرير ، وهذا المعنى لاشفاق فيه فانه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليذكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا

في كل أرض بحسب حاجتهم وكفائتهم لأنفسهم وأراضهم وقوله تعالى (وهذا ملح أجاج) أى ملح مر زعاق لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة في المشرق والمغرب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجرى ، ولكن توج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص ، فاجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مألحة لئلا يحصل بسببها تن الهواء فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتها طيبة ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد وقوله تعالى (وجعل بينها برزخاً وحجراً) أى بين العذب والمالح (برزخاً) أى حاجزاً وهو اليبس من الأرض (وحجراً محجوراً) أى مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكنا تكذبان) وقوله تعالى (أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشراً) الآية أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الحلقة ذكراً وأنثى كما يشاء (فجعله نسبا وصهراً) فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهراً ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى (وكان ربك قديراً)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا نَشَاءُ أَن يَتَّخِذَ إِلَٰهًا مِن دُونِ اللَّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسئَلُ بِهِ خَيْرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضرا ولا نفعاً بلا دليل قادم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الأراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أى عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) أى آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويدبون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ورسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة قال مجاهد (وكان الكافر على ربه ظهيراً) قال يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه ، وقال سعيد بن جبير (وكان الكافر على ربه ظهيراً) يقول عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، وقال زيد بن أسلم (وكان الكافر على ربه ظهيراً) قال موالياً ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) أى بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله (قل ما أسألكم عليه من أجر) أى على هذا البلاغ وهذا الأنداز من

أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم) (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أي طريقا ومسلكا ومنهجا يقتدى فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لا يموت) أي في أمورك كلها كن متوكلا على الله الحي الذي لا يموت أبدا الذي هو (الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الدائم الباقي السرمدي الأبدى الحي القيوم رب كل شيء ومليكه اجعله ذكرك ومدجأك ، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفي قال قرأت على معقل يعني ابن عبيد الله عن عبد الله بن أبي حسين عن شهر بن حوشب قال ، لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال «لاتسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت» وهذا مرسل حسن . وقوله تعالى (وسبح بحمده) أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» أي أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وقال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (قل هو الرحمن آمنابه وعليه توكلنا) وقوله تعالى (وكفى به بذنوب عباده خيرا) أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى (الذي خلق السموات والأرض) الآية أي هو الحي الذي لا يموت وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع في سفولها وكثافتها (في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي يدبر الأمر ويقضى الحق وهو خير الفاصلين وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن فأسأل به خيرا) أي استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فمقاله فهو الحق وما أخبره به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى (فإن تنازعتم في شيء) الآية وقال تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أي صدقا في الاخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى (فأسأل به خيرا) قال مجاهد في قوله (فأسأل به خيرا) قال ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جريج وقال ثمر بن عطيّة في قوله (فأسأل به خيرا) هذا القرآن خير به . ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أي لا نعرف الرحمن وكان يدكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا لانعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله تعالى (قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أي هو الله وهو الرحمن . وقال في هذه الآية (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أي لانعرفه ولا نقر به (أنسجد لما تأمرنا) أي لجرد قولك (وزادهم نفورا) فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلحابة ويسجدون له ، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارنوها ومستعملها كما هو مقرر في موضعه والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

يقول تعالى مجدا نفسه ومعظمًا على جميل ما خلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام في قول مجاهد

وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة . وقيل هي قصور في السماء للحرس ، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد ابن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش ، وهو رواية عن أبي صالح أيضا والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ولهذا قال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً) وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى (وجعلنا سراجاً وهاجاً) (وقمرأ منيراً) أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وقال مخبراً عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ألم تتروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً) ثم قال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً) أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذلك كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الآية وقال (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) الآية وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقوله تعالى (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح « ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو حمزة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطل صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه فقال إنه بقي على من وردى شيء فأحببت أن أتمه أوفال . أقضيه وتلاهذه الآية (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خليفة أي مختلفين أي هذا بسواده وهذا بضيائه

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى (ولا تمس في الأرض مرحاً) الآية فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشم ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صلب وكأتما الأرض تطوى له ، وقد ذكره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال ما باللك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإعما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » وقال عبد الله بن المبارك عن معمر بن عمرو بن المختار عن الحسن البصري في قوله (وعباد الرحمن) الآية قال : إن المؤمنين قوم ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة . فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) أي إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيء لم يقابلوه عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا

خيراً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً وكما قال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي خالد الوالبي عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب رجل رجلاً عنده فجعل السبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إن ملكاً يبسكاً يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به » إنسانه حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد (قالوا سلاماً) يعنى قالوا اسداداً ، وقال سعيد بن جبير ردوا معروفاً من القول ، وقال الحسن البصرى قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلماً ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) أى فى طاعته وعبادته كما قال تعالى (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) وقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية ولهذا قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) أى ملازماً دائماً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراماً وإن يع ط جزيلاً فإنه لا يبالي

ولهذا قال الحسن فى قوله (إن عذابها كان غراماً) كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وإنما الغرام اللزيم مادامت الأرض والسموات وكذا قال سليمان التيمي ، وقال محمد بن كعب (إن عذابها كان غراماً) يعنى ما نعموا فى الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرهمم فأدخلهم النار (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) أى بشئ المنزل منظر أو بشئ المقييل مقاماً ، وقال ابن أبي حاتم عند قوله (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) حدثنا أبو الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال : إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأساً من سم الأسود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعص على حدة والعروق على حدة . وقال أيضاً حدثنا أبو الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال إن فى النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاهمم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت

وقال الإمام أحمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعنى ابن مسكين عن أبي طلال عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن عبدأ فى جهنم لينادى ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل ذهب فأتى بعبدى هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل ائتني به فانه فى مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يا رب شر مكان وشر مقييل فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى . فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى » وقوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية أى ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهلبيتهم فيقتصرون فى حقهم فلا يكفونهم بل عدلاً خياراً وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا (وكان بين ذلك قواماً) كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي تميم العسائى عن ضمرة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فقه الرجل قصده فى معيشته » ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وقال الحافظ أبو بكر البرزنجى حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال - يعنى العبسى - عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحسن القصد فى الفنى وما أحسن القصد فى الفقر

وما أحسن القصد في العبادة « ثم قال لا تعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف ، وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقيل غيره السرف النفقة في معصية الله عز وجل

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَعَفَ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال « أن تجعل لله أندادا وهو خالقك » قال ثم أي ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري عن أبي معاوية به ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش ومنصور زاد البخاري وواصل ثلاثهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به فأنه أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ، الحديث . طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السري يعني ابن إسماعيل حدثنا الشعبي عن مسروق قال : قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلس على نشز من الأرض وقعدت أسفل منه ووجهي حيال ركبتيه واغتمت خالوته وقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال « أن تدعو الله ندأ وهو خالقك » . قلت ثم مه ؟ قال « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » قلت ثم مه ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله) الآية وقال النسائي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع « ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشجع عليهن منذ مبعثهن من رسول الله ﷺ ؛ « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن المديني رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الأنصاري سمعت أبا طيبة الكلاعي سمعت المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون في الزنا ؟ » قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام قال « لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له » وقال ابن جرير أخرني يعلى عن سعيد بن جبيرة أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية ونزلت (قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي فاختة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل « إن الله يهلك أن تعبد الخلق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتعذو كلبك ، وينهاك أن تزني بحليلة جارك » قال سفيان وهو قوله (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية . وقوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثاما : واد في جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) أودية في جهنم يعذب فيها

الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد ، وقال قتادة (يلقى أناماً) نكالا : كنا نحدث أنه واد في جهنم وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أمامة الباهلي موقوفا ومرفوعا ان غيا وأناما بئران في قعر جهنم . أجازنا الله منهما بمنه وكرمه . وقال السدي (يلقى أناماً) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسرهما بما بعده مبدلانه وهو قوله تعالى (يضاعف له العذاب يوم القيامة) أي يكرر عليه ويغلظ (ويخلد فيه مهانا) أي حقيرا ذليلا . وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً) أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القيحة ما ذكر (إلا من تاب) أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فان الله يتوب عليه ، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الآية فان هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قد قال تعالى (إن الله لا يغير أن يشرك به) الآية . قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب قبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث ، وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) في معنى قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولان أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفا وبعد طول النفس الوجيفا

يعنى تعيرت تلك الأحوال إلى غيرها ، وقال عطاء بن أبي رباح هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قيحة ثم يبدله الله بها خيرا . وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله عبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال الساميين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح الشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصري أبدلهم الله بالعمل السوء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالصجور إحصانا ، وبالكفر إسلاما ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين (والقول الثاني) ان تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ماضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجدته مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار الروية عن السلف رضى الله عنهم. (١) فمن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤق برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صفارها قال فيقال له : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، وكذا وكذا ، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال : فان لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لأراها ههنا » قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، انفرد بإخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن إسحاق حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطني صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة مما بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات فاذا أراد أحدكم أن يتم فليكتب ثلاثا وثلاثين تكبيرة ومحمد أربعا وثلاثين تحميدة وسبح ثلاثا وثلاثين تسيحة فتلك مائة » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة وطارم قالا حدثنا ثابت يعني ابن يزيد أبو زيد حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فاذا سيئاته فاذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فاذا هي قد بدلت حسنات ، وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود حدثنا أبو العباس عن أبيه عن أبي هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله

(١) قوله فمن أبي ذر الخ في بعض النسخ زيادة السند بما لفظه . قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعمر بن سويد عن أبي ذر الخ اه

ابن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيامهم فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا ، فعند ذلك عفا الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرأوا كتابه) فهم أكثر أهل الجنة ، وقال علي ابن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواها ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها يمينه لوقسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتم فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أأسلمت؟» قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم «فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات» فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال «وغدراتك وفجراتك» فولى الرجل يكبر ويهمل : وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال «أأسلمت؟» فقال نعم ، قال «فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها» قال وغدراتي وفجراتي؟ قال «نعم» فمزال يكبر حتى تواري ، ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعاً ، وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زينت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بشما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟» (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب) الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً ، هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم ، وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول يا حسرتاً أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت ، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت إلى الله عز وجل ، ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً فقال تعالى (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) أي فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية وقال تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) الآية وقال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية أي لمن تاب إليه

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا سُومًا وَمُخْمِيانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الأصنام وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد بن الحنفية هو اللغو والغناء ، وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك

والربيع بن أنس وغيرهم : هو أعياد المشركين . وقال عمرو بن قيس : هي المجالس السوء والحنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقيل المراد بقوله تعالى (لا يشهدون الزور) أى شهادة الزور وهى الكذب متعمدا على غيره كما فى الصحيحين عن أبى بكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال « الشرك بالله وعقوق الوالدين » وكان متسكئا فجلس فقال « ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضرونه ولهذا قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) أى لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشئ . ولهذا قال (مروا كراما) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرنى إبراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهؤ فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما » وحدثنا الحسين بن محمد بن سلمة النحوى ثنا حبان أنا عبد الله أنا محمد بن مسلم أخبرنى ميسرة قال بلغنى أن ابن مسعود مر بلهؤ معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وهذه أيضا من صفات المؤمنين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وظغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) فقوله (لم يخروا عليها صما وعميانا) أى بخلاف الكافر الذى إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد قوله (لم يخروا عليها صما وعميانا) قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : كم من رجل يقرؤها ويخروا عليها أصم أعمى . وقال قتادة قوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) يقول لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عبد الله بن حمران ثنا ابن جعون قال سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعنى أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطعمه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم فى الدنيا والآخرة قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شئ أقرب لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج فى قوله (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام وقال الإمام أحمد حدثنا معمر بن بشير حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثنى عبد الرحمن بن جبير ابن نفيير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا أننا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ، ثم أقبل إليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتعمى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي

صلى الله عليه وسلم على أشرف حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان فجاه بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تفر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين) وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ، وقوله تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا في الخير. وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هدام متعدياً إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مكاباً ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية »

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَثُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله (أولئك) أى المتصفون بهذه (يجزون) يوم القيامة (الغرفة) وهى الجنة ، قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي سميت بذلك لارتقاعها (بما صبروا) أى على القيام بذلك (ويلقون فيها) أى فى الجنة (تحية وسلاماً) أى يتدرون فيها بالتحية والإكرام . ويلقون التوقير والاحترام ، فلمهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقبى الدار ، وقوله تعالى (خالدين فيها) أى مقيمين لا يظنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبيغون عنها حولا كما قال تعالى (وأما الذين سعدوا فى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى (حسنت مستقراً ومقاماً) أى حسنت منظراً وطابت مقبلاً ومنزلاً . ثم قال تعالى (قل ما يعابى بكم ربى) أى لا يبالى ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلاً . قال مجاهد وعمرو بن شعيب (ما يعابى بكم ربى) يقول ما يفعل بكم ربى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (قل ما يعابى بكم ربى) الآية يقول لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ، وقوله تعالى (فقد كذبتم) أى الكافرون (فسوف يكون لزاماً) أى فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم يعنى مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصرى (فسوف يكون لزاماً) أى يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما. آخر تفسير سورة الفرقان وقه الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الشعراء وهى مكة ﴾

﴿ وقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طَسَمَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَمَّا بَلَغَ نَجْحُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خُصِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرِ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءٌ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾